قضية شبه

اصطحبت ابنتي زوجي للمدرسة هذا الصباح، أي ابنتي. فقد كنت سببا في كسر أواصر علاقة زوجية بسبب زيغ عاطفي، أحببنا بعضنا من لقاء خاطف بين طبيب ومريضته، نزلة زكام حادة غيرت مسار حياتنا. معا. لم أتوقع يوما أن أكون سببا في تدمير بيت لكني نجحت في إعادة بنائه وإنقاذ حياة زوج وبنتين، زوجته أو بالأحرى طليقة زوجي الأولى كانت تهتم بعملها وصديقاتها وزينتها أكثر من أي شيء آخر. تركت هوة العلاقة الزوجية تتسع وتنزح نحو الفراق. أي نعم كان هو الآخر ولا يزال يهتم بأسفاره وندواته ومرضاه أكثر من أسرته الصغيرة، لكني كنت قادرة على إعادة ذلك التوازن الذي قد لا تستطيعه زوجة أنانية ونكدية! كنت قادرة على نقل مرسمي بلوحاته وألوانه وريشاته المختلفة الأحجام إلى بيتنا الجديد، فقد رفضت أن أمشي على خطى امرأة سبقتني إلى تأسيس هذا الحلم الجميل، أطبخ وأنظف وأهتم بالبنات، ولي من زوجي نهاية الأسبوع ووقت مسروق، نقضيه استماعا لموسيقى باخ، وريتشارد كلايدر مان، نسافر نحو البحر والجبال، نجابه الموج بزورقنا الصغير، يحتضنني كما يحتضن الليل ما تبقى من نهار، نمسك معا بالسكين ونقطع الخضار، نعد المرق بالدجاج

وفي المساء نعد كعكة الميلاد، يهديني حياة لم أكن فيها، وأهديه حياة هو كل ما فيها.

وإذ بلغنا قصدنا ودعت البنتين ورحت أتجول المدينة مشيا على الأقدام، لوحدي أتعرف على ملامحها الباهتة، وتلك الوجوه الحزينة التي يكسوها الفخر لوطنيتها، ويعريها الحزن لضيق ذات اليد وعسر الحال، سيدة لم يغط البؤس جمالها ربما في ربيعها الثلاثين تحتضن طفلا وتفترش الأرض، تنتظر من يجود عليها برزق يومها، طلاب الجامعة القاطنون بالأحياء الجامعية يحتضنهم "باص" وحيد الكل واقف وليس له إلا المكان الذي يطأ عليه، يرددون شعارات سنوات الرصاص والدم، غضب وابتسامة وفخر. وسائق الباص السيد حسن يبتسم دون أن يكشف شاربه الكث عما يخفيه من وجع الأيام. رجل لا يمكن أن تفرق جنونه من سكره، ينفخ من نفسه في حقيبة بلاستيكية لعله يغيب غيابات متكررة عن هذا العالم الموبوء بالنسبة له. وإذ تمطر تمر سيارة فارهة لا تعرف للبرد لونا تبلل ملابس المارة بشذرات المياه التي كانت تشكل على شارع مليء بالحفر شبه برك متفاوتة الأحجام. تختنق الشوارع بالمطر المتراكم، يجري الناس في عجلة، تحتضن السيدة الشابة طفلها خوفا من المطر. يبث المذياع أخبارا روتينية، عن الوقفات والمظاهرات المنددة ضد الحكرة والاحتقار، مسيرة

أشعلها محسن فكري فتى الحسيمة الذي اعتصرته حاوية أزبال. وتوقفت!

مررت بجانب مدرسة عمومية، وتكرر المشهد مع أغلب المدارس التي مررت بها في طريقي، ترتكن قربها الأزبال، وبجانبها يوجد موقف للسيارات، وأمام باب المدرسة بائعو حلويات، ليس كالذين عهدناهم، رجالا كبارا أو شبابا أو حتى أطفالا يسعون لكسب قوتهم بالحلال، بل مروجون لكل أنواع "البلية"، إهمال باد للمسؤولين للمدرسة التي أخذوا عنها ومنها العلم والمعرفة، لم يعد هناك من شيء يغري في هذه المدينة.

رن هاتفي، يقول زوجي أنه لن يعود لتناول الغذاء في البيت، واجبه يقتضي ذلك. وحالتي النفسية ذاتها لم تكن مستعدة لإعداد وجبة غذاء تليق بيومه المرهق. اخترت لي ركنا في مقهى، طلبت الجريدة ورحت أتصفح الأخبار والأبراج وضعتها جانبا. ولم أجد أفضل من تصفح وجوه المارة، فإذا بعيوني تلتقط مشهد رجل يشبه زوجي كثيرا يمسك بيد شابة شقراء، راسما لها ألوان السعادة قبل أن يستقبلهما النادل الذي استقبلني لأخذ مكان يليق بهاء اللقاء، دفعت الحساب وعدت للبيت موهمة نفسي أن القضية قضية شبه!